إن عادت الحية ...

للكاتب الفرنسي هنري بارناباس
بقلم الأستاذ محمد لطفي جمعة

تعريف بالقصة

هنري بارناباس ، كاتب قصاص على نسق جي دي موپاسان قليله يغني عن الكثير ، وكثيره رائع . جعل قصته (إن عادت الحية ...) على لسان موظف سياسي ، يحمل حقيبة دبلوماسية بين باريس ومرسيليا . وفجأة التقى في القطار بصديق قديم هو القصاص الشاعر كليان ديربال الذي كان شبه مجنون بحالة رثة . وإنه على غناه وتلؤلؤ مواهبه يعيش عيشة الفلاكة ، فاستدرجه حتى قص عليه سبب قنوطه من الدنيا وزهده في الحب وسعادته الموهومة . وكانت القصة تنفصل وتتصل تبعاً لحركة القطار وبلوغه محطات الطريق وهو ابتكار في فن الرواية . فإن القصة ليست سوى قطعة من حياتنا تلازمنا ونعيشها وتأخذ منا وتعطينا كالسفر نفسه الذي ينقلنا ويطوي المكان والزمان والأعمار معاً . أما اسم المرأة فهو لور ، ويكتب أحياناً لورا وهكذا كتبناه على الصورتين .

إياك واحذر من الاعتزاز بمواهبك كما كنت أفعل . فقد كنت أفاخر بما يسمونه قوة الذاكرة ! وأزعم أنها صديقة وفيّة لا تخونني أبداً . وما زلت كذلك أغبط حيناً وأحسد أحياناً على تلك النعمة المؤاتية سواء أكان ذلك ذكاء أو فطنة . تقول عقلاً واعياً أو عقلاً باطناً .. قل ما شئت ، ولكن ثق يا صاحبي أنني أعتقد أن في الكائن الانساني سراً كامناً ، بل قوة خفيّة ... سمّها شيطانة أو ملكة ... كما شئت ... فهنا السر (وأشار الأستاذ بيرون إلى رأسه) الذي يعجز العلماء عن تحليله ومعرفة كنهه.

كنت مسافراً من مرسيليا إلى باريس في قطار الليل السريع في عمل هام ينتظرني ذووه على أحر من الجمر ... نعم عمل سياسي سيأتي خبره في سياق حديثنا . وكان في صحبتي موسيو ديربال الكاتب الشهير الذي قضى نحبه بفاجعة أليمة ... كان قصاصاً وشاعراً ولكنه من ذلك النوع المتبرم بالحياة .

كنت قرأت كتابه « من الأعماق » وهو حافل بأنفس الخواطر والأفكار عن خفايا الضمير وخبايا النفس من الشهوات والوجدانات والعواطف . وكان ديربال يأكل ويشرب وينام ويصحو بثيابه كاملة ، ويأبى أن يغتسل أو يحلق ، ويقول إن الأسد والفيل والنمر لا تفعل شيئاً من ذلك فلا حاجة به إلى الزينة . فتصور هيئة ذلك الإنسان المتوحش الذي وهبته الطبيعة تلك العبقرية النادرة وهو ينشدك شعره في فلسفة الحب وهو حافل بالبديع الرائع من شذرات الغزل الرقيق والنسيب العذب ، ولو رأته فتاة أو كاعب لفرت من وجهه فزعاً

فسألت رفيق السفر : كيف صار إلى تلك الثورة وذلك القلق حتى أمسى متوقداً معذباً وهو الذي أفاض نفثات السحر على آفة الحب فكساها أجمل صبغة وأحسن رواء ، واجتنى من شجرة الأحزان والأشجان ثمار الفصاحة غضة يانعة .

فقال لي : خيانة المرأة . خيانة المرأة هي التي ساقت إلى قلبي الحزن الدائم والشقاء المقيم ، فأصبح قلبي مجال الشك والريبة وموطن التهمة وسوء الظن

فسألته : أَلِأن امرأة واحدة خانتك ، جعلت الجنس الأنثوى كله فريستك وضحيتك فثرت على نشاء العالم ثورة حنق وحقد عنيفة هوجاء وشننت على النوع الإنسانى غارة شعواء ؟

فتنهد ديربال من أعماق قلبه وحدجنى بعينين قويتين ثم قال : لقد ثبت عندى أنك لم تعرف خيانة النساء ولم تذق مرارتها ولم تكتو بنارها . إنك يا سيدى لا تعرف حقيقة قلب المرأة ... ولعلك لا تزال تظنها بهجة الدنيا وزينة الحياة وقسيمة الرجل وأداة سعادته ووسيلة هنائه . ومن العجب أن معظم الرجال يرون رأيك ، فليتهم يعرفون بعض ماعرفت ، إذن لتمنوا انقراض جنس المرأة انقراضاً لا رجوع بعده ، وإذن لساد الأمن والسلام فى الدنيا وانفسحت ظلال النعيم فى العالم ، وكف الناس عن التدافع والتنازع والتحاسد والتحاقد ، ولم تلق على ظهرها وغداً ولا شريراً ولا لئيما ولا خبيثاً ؛ إذ يصبح الرجل لا يرى لنفسه أدنى ثمرة فى التزام الرذائل والخبائث وارتكاب الإثم والجرم واقتراف الشر والنكر . هذا لا شك ما يحصل لو أن الطبيعة فى ساعة من ساعات تعقلها قضت بطعنة واحدة على بنات حواء كافة وأراحت الرجال من الجنس « اللطيف » . فابتسمت ثم ضحكت ثم ساورتنى المخاوف فقد دخل فى روعى أن بالمؤلف العظيم لا شك جنة لا تعرف علتها ولا يفهم سرها . ولعله كان أصيب إثر داء أو لوعة بأشنع أنواع الجنون ، أعنى ذلك الذى يكتسى ثوب العقل ويلبس زى الحجة والبرهان ! ! وقد تمكن بعقله الجبار أن يجعل من الجنون جمالاً ، وينفض على أضاليل الأقوال والأعمال رونقاً سماوياً كلألاء الشعاع ، يبهر عيوننا ؛ تتلو صفحاته فتسكب عليها دموع الرقة والحنان . عند تمام الساعة الأولى بعد نصف الليل ، وقف القطار فى محطة ديجون فدعوت الشاعر إلى شرب قدح من نبيذها المعتق ، فأبى إلا أن يشرب أقداحاً من الأبسنت وهو ما يسميه « بالشيطان الأخضر » ويتغزل فى لونه قبل أن يتجرعه . وفى الحق أن تلك الخمرة الخبيثة التى طالما ضللت العقول ، وحرقت الأكباد ، وأذابت المواهب النادرة ، كانت فى الأقداح كازهرد الذائب تجذب النظر وتغرى النفس بارتشافها . وقد لمح ديربال إعجابى وترددى ودهش من اكتفائى بالنبيذ ، وهو شراب بريء إذا قارنته بشيطانه الأخضر الآثم فقال لى :

— إذا أرقتنى الأوجاع وسهدتنى الأوصاب ، خففت عني وطأة الداء بهذه الكؤوس المترعة ، فتحول ذهنى عما أعانيه من الألم بذكرى أيامى الخالية وحوادثى الماضية ، وما انطوت عليه من العواطف والحسرات والتلهفات ، وخواطر التوبة والندم

فقلت له وأنا أنادمه : ترى يا صاحبى ديربال أى أدوار حياتك هي الآن أكثر تردداً على خاطرك فى ساعة الذكرى ؟

فقال : لم يكن دور الشبيبة وعصر الصبا ... كلا ! فلقد كانت ملذاته قليلة نادرة ، مشوبة في معظم الأحيان بمرارة الألم ، إنما خيانة المرأة هى التى تتردد على خاطرى ، وفى أمثال هذه الساعة إذا خطرت ببالى الخواطر عن باريس وأحوالها وحوادث العصر ، وعن شهرتى وسمعتى ، أسرعت إلى طردها من رحمى خاطرى لتوفير نفسى على ما تألم له من الوجدانات والأشجان ، التى تحركها ذكرى خيانة المرأة

كان الشاعر ديربال يتكلم ، وأنا أتحرق على قصته ، ولكنني لم أحاول قط أن أشعره بتلهفي ، فقد عهدت هذا النوع من الرجال يروغ منك ويعرض عنك ، إذا أحسّ برغبتك في استطلاع دخيلة نفسه ، بل إنه ليفقد وحيَه ، ويطفئ مُصباحَ إلهامه عامداً ، إذا ألزمته أن يروى عليك حديثه . يجب أن تتركه يفيض من تلقاء نفسه ، وإن عواطفه الجيّاشة لتطغى على هدوئه وتلجئه إلى الكلام ، ليخفف عن قلبه وطأة الألم ، فخير سبيل لك أن تتركه ، وإن أردت الإمعان في إهاجة شعوره ، فلتعرضن عنه ، ولتظهرن عدم اكتراثك بالوقوف على سره ، وإلا فإن كل إشارة أو عبارة تنم عن اشتياق لحديثه تسد في نفسه مسالك القول ، ولذا فقد تصنعت الإغضاء وتعمدت التجني ، وما زلت سالكاً معه سبيل الدلال حتى عدنا إلى مركبة القطار ، وقد بعثت فينا أقداح الخمر دفئاً وأحلاماً عذبة ، فاضطجع ديربال على المقعد الطويل ، واتخذ منه فراشاً وثيراً ، وأخرج من أعماق جيوبه المختفية وراء أردية لا عداد لها ، علبة مستديرة من الذهب ذات غطاء لازوردي مزدان بصورة لم أتبينها في بادئ الأمر ، ثم نقر على غطائها ورفعه ، وتناول على مهل بين أطراف بنانه مسحوقاً معطراً مما تحتويه العلبة وقال : هذه علبة زينتها وقد نقشت عليها صورتها ، صنعها لي كلود پاسيه ، ووراء الصورة مرآة صغيرة طالما نظرت إليها وهي تتزين بما فيها فانطبعت على صفحتها محاسنها ... أتصدق ذلك ؟ إنني عند ما أشتاق لرؤيتها ، أنظر إلى خيالها في المرآة ... لأنه لا يزال باقياً ، فأراها !! ثم أنشق عطرها ... أتصدق ذلك ؟ إني قادر على استحضار مباهجها وعبقها ، بعد أن ماتت واستقرت في جوف الأرض الندية في غابة قريبة من شاربونييه ، تلك القرية الجميلة التي قضيت فيها أسعد أيام حياتي في صحبتها قبل أن أكتشف خيانتها التي استحقت عليها الموت . نعم الموت

— إذن ماتت تلك التي حملتك أعباء الحزن والغيرة ، وأسخطتك على الدنيا ومن فيها ؟

— نعم . ماتت

— وإذن كنت سعيداً حقاً بحبها في حياتها ؟

— كنت سعيداً ... وأعترف أني كنت أشعر أحياناً وسط هذه اللذائذ الرائعة بضئولة أحلامي وأوهامي وأحس أن أخيلتي كانت تافهة حقيرة ، لأنني كنت أرى في عينيها بريقاً يوشك أن يكون لهباً . فأسألها فلا تحير جواباً . كانت اللعينة سكوتاً آيتها الصمت الطويل والتفكير العميق ، فأسكرتها ذات ليلة سكراً شديداً فكانت تلك الشيطانة الانسية تزداد صحواً وتنبهاً ، وكلما أمعنت في إغراق حرصها في كؤوس الخمر لأحل عقدة من لسانها أمعنت هي في اليقظة ، كأن خمرة بورجونيا وشمبانيا وكونياك[1] عصرت خصيصاً لتزيدها حذراً وتكتماً ، ولكنها في آخر تلك الليلة بعد أن لا ينتها وداعبتها وعبثت بشعرها ومناعم صدرها وهصرت عودها وعصرت قلبها بما يقبل عليه كل عاشق مجنون في خلوة يحسبها لفرط عطشه وداع الحب ونهاية الغرام ، وقد جلست في الفراش عارية ، وكانت أشبه الأشياء بتمثال من

(١) أسماء مقاطعات فرنسية اشتهرت بعصر الخمور المعروفة بأسمائها

المرمر المشرب بلون العاج ، وقالت لي بعد برهة من وصالنا :

أي كليان . كليان دربال... ماذا تطلب مني ؟ أراك لا يهدأ روعك منذ عرفتني ، ولا تستقر على حال . تدأب تسألني عن الماضي ، كأنك لا تقنع بحاضري الذي بين يديك . ما ذا عليك من الماضي وما جرى فيه . أتظن أشد النساء بلاهة ونزقاً تفضي إلى حبيبها بحقيقة حالها مهما برح بها هواه وسلمت له قيادها فقلت : هل بعد الذي نحن فيه سر يصان ، وهل وراء ما نرى ونتذوق خفاء ؟

— وهل يحب الرجال أبداً هتك الأستار ؟ هب معشوقة مفرطة في السذاجة والصدق أفضت إلى عاشقها بكل ما رأت وعاينت وتألمت أو فرحت وسعدت . أتراه يتقبل اعترافها بالتصديق والتسامح؟ أم تراه يصاب بداء الغيرة التي تقتل الحب في مهده يافعاً وفتياً . وإن هي صدّقته وكان هو أول من أحبت ، فليس لها منه سوى الشك الباعث على اتهامها بما هو أشد من التصنع والكذب

فقلت لها : تضربين يالور المحبية الأمثال بغيرك وتحومين حول لباب الحديث وخلاصته ويأبى حذرك أن تتكلمي عن نفسك ؟

فقالت : لو أن وراء الكلام الذي تقصد إليه خيراً لك ولي ، وحقك ماترددت لحظة في تسليمك مفاتيح قلبي ، وجعلتك في حل من مغاليقه . ولكن وا أسفاه ! ليس لدي ما أبوح به غير أني امرأة شقية بائسة ، لقيتك في وقت كنت فيه أحوج ما أكون للعناية والرحمة والمواساة والحب ، فأحببتني وعنيت بي ورحمتني وواسيتني ، وفرجت أزمة نفسي التي كادت تسحقني وتمحقني ، حتى لقد اعتقدت أنك مرسل إلي من السماء ، فإنني على الرغم مما وقع بي من كوارث الحياة ونكباتها ، لا تزال بي بقية من الإيمان الذي نشأت عليه وأظلتني شجرته

فقلت لها : عجباً يا لور . لم أسمع منك قبل هذه اللحظة أنك كنت في ضيق وألم وأنني خففتها

فقالت : أكنت تريد أن تمتن عليّ وتتطاول وتحاول إذلالي

قلت : من أين لك هذا الظن السيء ، ولِمَ لم تحسبي أنني أشاركك الأسى وأترفق بك ، وأتلطف فتخف لوعتنا معاً ، فإنني أنا الآخر وليد شقوة وحليف آلام وأليف أحزان

فاطمأنت المرأة قليلاً ووهمت أنها همّت بالكلام الصريح ثم عادت فأطرقت ونظرت إلى الفراش بمينين واسعتين ثم صوبت نظرها فيّ وصمدت . وأنا أتحرق من الغيظ والصبر الطويل وأعجب لهذا السر الذي انطوت عليه أضلاعها وأنظر إلى فمها المغلق بأقفال الصمت القاتل ، ثم قالت : إسمع الآن يا كليان ... لقد عرفت قبلك رجالاً ، صغاراً وكباراً ، فلم يسدوا حاجتي ولم ينقعوا غلتي ولم يمنعني حبهم المشتمل من الاسترسال في التمني والتطلع والتخيل ؛ وكنت أحس في نفسي فراغاً مجهول الملة ، لا يملأه شيء ألبتة ، وأجد في مهجتي تلهفاً على نوع آخر من السعادة لا أفهم كنهه ولا أعرف ما هو ، ولكني أشعر بشدة الحاجة إليه ... إلى أن التقيت بك فأحببتك وأخلصت لك وها أنا ذي أقسم لك...

فقلت لها : لورا ! لورا العزيزة المحبة ! بالله عليك لاتقسمى ، ليس من وراء القسم إلا القطيعة ، فإن المرأة المحبوبة لا تقدم على الإيمان إلا إذا أحست بدبيب السأم فى قلبها فتريد أن تستوثق من دوام حبها ، وتمحو فكرة الشك من نفس عاشقها . وبدأت الخبيثة تبكى وتنتحب وتمرغ خديها على صدرى ووجهى وتغرس أظفارها في لحمى حتى كادت تدمى بدنى فقلت لها :

لورا ! لورا ! لا تؤذى عينيك الجميلتين بالبكاء ناشدتك الله ! غيضى مدامعك وكفكفى عبراتك فوالله ما قصدت إلى إيلامك أو إيذاء عواطفك ، ولا الفضول والتطفل على خصوصياتك وأسرارك ودخائلك وإن كنت أجدنى مدفوعاً بأقوى عوامل الرغبة إلى الاهتمام بنفسك والسعى وراء مصلحتك

عندئذ نصبت المرأة قامتها وقذفتنى بنظرة حشدت فيها كل ما تستطيعه من البغضاء والكراهية وقالت لى : أتحسبنى من النساء اللواتى تستدرجهن المنفعة ، إن قلبى أيها الرجل لايباع ولا يشترى ، إننى أعز وأغلى من أن أكون سلعة ، إن الرجل الذى يستطيع أن يدفع ثمنى لم يخلقه الله بعد . إنك تسخر منى وتهزأ بى ، ولكن اعلم يا كليمان أن قلبى إن نازعنى فى هواك لأخلعنه من صدرى لأسحقه تحت قدمى . ولم تكد تتم قولها حتى راعنى وآلمنى ما أبصرت من شدة اصفرارها وامتقاع لونها ، فأيقنت صدقها ولم يبق فى ضميرى أثر من شك فى إخلاصها وصدق مقالها

فقلت لديربال الذى كان يروى حديثه :

— ألم تكن صادقة بمدالذى وصفت ؟ فنهض ديربال ووقف بقامته المديدة وسط مقصورة القطار حتى كاد يصدم برأسه مصباح السقف الذى كان يشبه بطيخة من الزجاج الأزرق ، وصرخ :

« صادقة ! مخلصة ! ما ذا تقول يا هذا ؟ إعلم هديت الرشد — أنه ليس من شر فى العالم أو أذى أو ظلامة إلا فى رقاب النساء اثمها ووزرها ، وعلى رؤوسهن تبعتها ومسؤوليتها . فقلت له: موسيو ديربال هدئ روعك ! فقال : تكاد نفسى تطير شعاعاً كلما التقيت بساذج مثلك ، لا يزال يحسن الظن بالجنس اللطيف . إن النساء أغلظ أكباداً من أن يتألمن شديد الألم أو يكترثن عظيم الاكتراث عند رؤية مناظر الشقاء ومشاهد البلاء والمحنة — فهن ينظرن إلى مأساة الحياة تمثل على مسارح الدنيا ولا يكاد يخفق لهن بالأسف جنان ، أو تسيل لهن من الرحمة والرثاء أجفان . ولكن دموعهن تنهمر من أعينهن كالمطر إذا أردن أن يمثلن دوراً باهراً . على أننى لا أحب أن أفسد سياق القصة بهذا الاستطراد .. عندما رأيت بكاءها وغضبها ، آمنت بصدقها ولكن هاتفاً كان يهتف بى من أعماق نفسى أنها كاذبة . كذلك كان شعورى ، وإنه لشعور صادق وهو مزية لم تزل تميز أسرة ديربال منذ أقدم الأزمان ، وقد ورثتها عن أبى الذى ورثها عن أبيه ، وما زلت فى كل مسائلى وشؤونى أأتمر بأوامر هذا الهاتف فأهتدى إلى الصواب وأوفق إلى أحسن المواقب . فقلبى حدثنى بأن لورا خادعة خائنة ، ولكننى كنت جد حريص على إتمام سعادتى فى تلك الليلة وأخشى أن تكدر صفوها بالعويل والنواح ، فدنوت منها وأخذت يدها بين راحتى وضممتها إلى صدرى وقلت لها :

أنظرى إلىّ واصغي لقولى ! سيأتى يوم تعلمين فيه أن سلوكي معك الآن لم يصدر عن رغبة فى إسخاطك أو إساءتك ، وغايتى أن أبذل كل ما فى طاقتى لإسعادك ورد الأذى عن شخصك المحبوب ، أتوخى بذلك أن أكون أصدق صديق لك وأنصر نصير فى حياتك . وكنت أحسب هذا القول اللين الذى صدر عن إخلاص وشفقة يصل إلى أعماق نفس تلك المرأة التى ألفت شباكها على قلبي ، ولكن لشد ما كانت دهشتى عند ما قالت : كلكم سواء . لا فرق بين الواحد والآخر ؛ كلام عذب ووعود معسولة ، وقلوب سوداء . فقلت لها : كلكم ؟ كلنا ؟ إلى من تقصدين يا لور ؟

فقالت : أقصد إلى جنسكم جنس الرجال الخائنين ، فانكم تبذلون قصارى الجهد حتى تنالوا مآربكم من المرأة التى تخدعونها بحبكم ثم تعرضون عنها . فذعرت من قولها لأن الدهشة كانت أقل من أن تكفى فى مثل هذا الموقف وقلت لها : هل أستحق منك هذا التأنيب وأنت التى قلت إننى ملأت فراغ قلبك ، وفرجت أزمة نفسك وبكيت منذ هنيهة حتى عميت وبللت صدرى بدموعك ؟

فقلت لكليان دربال الشاعر : كان عليك أن تكتفى بهذا القول منها ثم تقطعها إلى الأبد فماذا ينقصك بعد هذا البرهان على اعوجاجها وتقلبها ، أنت يا من تقول إن سريرتك تهديك ، وهاتفك يدلك . فلم يتحرك دربال في مضجعه وقال :

— أنت رجل سياسى ناضج . ولكنك طفل فى حياة الحب . لو أن الإنسان كان خالياً من العواطف لأبصر الأشياء كما هى وعلى حقائقها البحتة المجردة ، ولكن الإنسان لا يتأمل الدنيا وأشياءها وشؤونها بقلب فارغ وفؤاد خال وشعور بارد جامد مثلكم أيها الساسة . ولكنه فى معظم حالاته إن لم يكن فى كلها ينظر إلى الدنيا وأشيائها بنفس مشغولة بعاطفة واحدة أو أكثر ، فإذا نظر رجل مثلى إلى إنسان أو شيء من وراء عاطفة الحب متخذاً من هذه العاطفة منظاراً ومجهراً يتأمل به ذلك الشيء كان خليقاً ألا يبصره على حقيقته وكنهه ، بل يراه مزخرفاً مُزَيناً بشتى صفات الوهم والخيال ، ولكنها أحق فى نظره من الحقيقة ، فهى وإن كانت في نظر غيره وهمية لكنها فى نظره كائنة موجودة بل مرئية ملموسة

— إذن كنت يا موسيو دربال تحبها إلى الحد الذى يحجب عنك الحقيقة وراء ستار من الأخيلة والأوهام

— أحبها ؟ لم أكن أحبها بذاتها ، ولكن كنت أحب الحب فيها . وإنها لعاطفة أقوى من حب المرأة لأنها أحدثت فى نفسى شعوراً غاية فى الحدة والشدة ، كان يلتهب فى قلبي ويتأجج فى سويدائى فأضيق به ذرعاً ، وكنت أبرز ذلك الشعور فى شعرى وقصصى التى فرّجت عن نفسى وكشفت عمى وسرّت همى . فكنت أشعر كمن أخرج جمرة من بين أحشائه ، أفاهم أيها السياسى ؟ جمرة من بين أحشائى

وفى تلك الليلة التى بدأت كأسعد ما تبدأ ليالى الغرام ، وأوشكت أن تنتهى كأسوأ ما تنتهي مآسى القطيعة صحت عزيمتي على مفارقة تلك المرأة فراقاً لا لقاء بعده ، فنهضت مترفقاً وارتديت ثيابى فى هدوء

قلت لك إننا كنا نعيش فى قرية شاربونيير ، إحدى ضواحى جرينوبل فى منزل صغير جميل أعدته لنا مدام بوديه ، وهي امرأة من أهل البيوتات الكريمة قعد بها الدهر ، فانقطعت للرزق من سبيل إيجار المساكن المؤثثة على أجمل طراز وأرشقه . وكنت أحب أن أطلعها على حقيقة أمرنا لعلى أفوز منها بمشورة ناصحة لأنى لمحت فى عينيها وميضاً يوشك أن يكون إفصاحاً بشفقتها على من تلك المرأة المتقلبة المتحكمة ، ولكن سكون الليل الذى كنا فى آخره وحرمة الهدوء السائد على الكون وذكرى الساعات القليلة التى قضيتها في جنب لورا ، وقد تكون من ألذ وأمتع ساعات العمر ، دعتنى إلى التريث والصبر حتى يتنفس الصبح

فلما رأتني لورا ألبس ثيابي قالت : أتتركني هكذا آخر الليل ؟ أو يطاوعك قلبك لأنني أفضيت إليك بمصارة قلبي وأطلعتك على ما لم أطلع عليه أحداً قبلك من خلق الله ؟

فنظرت إليها فإذا بى أراها وقد تغيرت معالمها — وجه حسن الملامح حقاً ولكنه جامد التقاسيم ، كأنه قد صب فى قالب من حديد ! فلست ترى به أدنى دليل على رقة العواطف أو أقل شاهد على ذكاء القريحة ، فكان هذا الجمود فى عينى أسوأ أثراً وآلم موقعاً من مقابح الخلقة ومساوئ التقاطيع

فقلت لها : أجادة فيما تقولين يالور ؟ أم هازلة عابثة ، تبذلين القول الجميل لتستبقيني بجانبك حتى الصباح ، فإنى أعلم أنه ليس شئ أشق على نفس المرأة من أن يهجرها عاشقها فى مضجعها ... ولعلك تخشين أن يتجدد حبك — إن كان فى قلبك حب فى تلك الفترة القصيرة التى سوف تشعرين فيها بالوحدة بعد انصرافى من هذا البيت ، وسوف تساورك الشكوك وتستأذن الغيرة على قلبك ، حاسبة أنى ما غادرت فراشك إلا لأندس فى أحضان غانية أهواها ، أو أتصيدها نكاية بك وانتقاماً منك . ولعل الذهن المريض أو الخيال السقيم يصور لك أنى ارتجلت تلك المشادة ، وابتكرتها وارتجلت الشقاق وفتحت باب الشجار على مصراعيه لألتمس لغضبتى عذراً ، ولأبرر موقفي منك إذا عاتبتنى أو حاولت إرضائى . فأنت يالور كظلى إن تركتك تبعتنى ، وإن تبعتك تركتنى ، تعملين خلاف ما أريد ، حباً في معاكستى

وكانت المرأة صامتة . وجعلت نظرات الحنق تتطاير من عينيها الغاضبتين تطاير الشرر عن ناره ، والنبل عن أوتاره ، وقد حاولت أن تتظاهر بعدم الفطنة إلى إشارتى وعدم الشعور بها ، فقلت لها : من ذا الذى أغراك ياصديقتى الخبيثة بأن تمثلى هذا الدور المنكر أمامي ؟

ودنوت منها وهى لا تزال رابضة فى فراشها وجلست على حافة السرير متلطفاً وقلت لها :

— إن شئت بقيت ، وإن شئت ذهبت ، وأنا على الحالين راض عنك ما دمت لا تحملين لى بين جنبيك الناعمين حقداً ، فقالت :

— أحمل لك حقداً ؟ وعلام ؟ ألأنك تغادر بيتى وبيتك كما يغادر العشراء مضاجع المحظيات قبيل الفجر ليعودوا إلى بيوتهم قبل أن يفضحهم نور النهار ؟

ابق إن شئت ، ولكن على ألا تمسسنى بخير

بشر ، ولا تفاتحني في أمر من الأمور التي أسقطناها من حسابنا . ثم بدا بوجهها من آيات السخط والضجر والتبرم ما لم أر مثله قط فجعلت لا أدري أي مقدار من هـذا السخط والاكتئاب كان فطرياً غريزياً في خلقتها وأي مقـدار كان طارئاً لعلة من العلل حتى أزالت هذا الشك ، بأن تناولت من جانبها طرحة من حرير ليون الفاخر ، كنت أهديتها إليها فظننت أنها تريد أن تتلفع بهـا ، ولـكن المفتونة تناولتها بيد عنيفة خرقاء ، ومزقت حواشيها كل ممزق — فنهضت من جانبها وقد علمت أن ما كان يلوح على وجهها من دلائل السخط والاشمئزاز إنما كان عن غريزة شر وشراسة ، ونحيزة غلظة وجفاء ، وليس لسبب حادث أو علة طارئة

وقصـدت إلى الباب أعالج رتاجه لأغادرها خشية أن يزداد شرها فيحدث بيني وبينها مالا تحمد مغبته ويورث الندامة ، فانتفضت من الفراش وطارت إليَّ ، وقبل أن أدرك ما تريد طوقت عنقي بذراعيها وهي تجهش بالبكاء وقالت :

— كليمان ! كليمان ! بربك لاتتركني وحيدة . عد إليَّ وأنا أعاهدك على أن أجعلك أسعد العشاق ! ألم تفهم يا غادر ؟ إنني أحبك من أعماق قلبي المحطم ، ولـكن كبريائي أقوى من حبي ، فلا أستطيع أن أبوح لك أو أسترحمك . هل أنت أعمى فلا ترى شـدة وجدي ولوعتي عليك ؟ ثم لم تلبث أن ركعت وتشبثت بساقي كما يتشبث الطفل الخائف بركبتي أمه ودفنت وجهها النادي في ثنايا معطفي وقالت :

«ها أنا ذي أمرغ خدي في تراب رجليك ، وأنا التي لا أستحق أن أربط شراك نعليك ، فاعف عني واغفر لي واصفح وراجعني تجدني أطوع من بنانك لا أطيق هجرك ولا أستطيع الحياة بدونك ...

فوحقك يا صاحبي بكيت ، وانفجرت في قلبي ينابيع الرحمة وأهويت عليها تقبيلاً وضماً وحملتها بين يدي كالحمامة الوادعة إلى الفراش الذي كان لا يزال دافئاً من أثر رقادنا ، وما زالت ترتعش بين ذراعي وتبكي وتتأوه ، وتئن وتحن وتشهق حتى صالحتها وضممتها إلى صدري وجففت دموعها براحتي

وقلت لها : عديني وعاهديني !

قالت : أعدك وأعاهـدك على ما ترغب ! أنا جاريتك وأسيرتك وملك يمينك فاصنع بي ما شئت وكن قاسياً فلا أستحق رحمتك

قلت : لا أطلب شيئاً من هذا ، بل عاهديني على ألا تعبسي ولا تقطبي حبينك ، ولا تكرهي محاسن وجهك ، ولا تستشيطي غضباً ، ولا يجن جنونك بعد الليلة ...

فقالت : أعدك وأعاهدك ، ثم نهضت وخلعت عني ثيابي في عطف وحنان . وكانت لها طريقتها في تناول أرديتي حين ألبسها وحين أخلعها حتى لتشعر أنها تهبها شيئاً من حبها لصاحبها . وتقدمت نحوي وعلى وجهها نور البشر والطلاقة ، وفي شمائلها معنى الصراحة والحفاوة والفرح بالصلح الذي تم فلمَّ شملنا بعد شـتاته ، ثم أخرجت من قمطرها قدحاً فضيًّا كبيراً إغريقي الصنعة وملأته بما احتوته القناني من النبيذ الأحمر وقبضت عليه بكلتا يديها وسقتني ثم شربت وجلست أمامي وأخذنا بأطراف الحديث فما لبثت أن وجدت في سهوله حديثها وعذوبته

ما أزال سؤر ريبتي ونفي حثالة شكوكي ، وبعد هنيهة أخذت تتبسط وتتطلق وتتحلل من قيود الكلفة السابقة إلى أن بلغت حدود الثرثرة والهذر والاسترسال فى سخافات القول وتفاهاته ، والمرء منا نحن الشعراء يستملح هذه المفاتن من الأنثى الجميلة إذا كان فى حلاوة الفم الناطق بها ووميض ثغره ورخامة صوته عوض عن تفاهته وقلة قيمته . فأفرغنا أقداح الشراب مثنى وثلاث وما زلنا نشرب حتى روينا . ثم رشفنا ما شاء الهوى من أقداح الغرام ...

* * *

وقف القطار فى محطة ليون ونادى المنادى بأن مهلة الانتظار أربعون دقيقة كاملة وأن بالمحطة مقصفاً للطاعمين والشاربين . فنهضت ودعوت ديربال إلى النزول فتململ فى فراشه ثم تمحل الأعذار ، زاعماً أنه يحب تلك المدينـة ذات الدوى والطنين تحت أروقة الظلام وسرادق الظلماء ، فقلت له : إنك تصف ليون منـذ عشرين عاماً ، أما الآن فهى عروس المدائن وبهجة العواصم ، ومسرح الغوانى ، وقطب دائرة المغانى ، وما زلت به أغريه حتى نهض إلى خوان المقصف وعاد إلى معاقرة شيطانه الأخضر ثم عدنا إلى مقصورتنا فى القطار قبل أن يدق ناقوس الرحيل بفترة وجيزة . وعاد ديربال إلى حديثه بلسان دافق وقلب خافق ، وما زالت عجلات القطار يسمع صريرها وهى تقطع بنا مئات الأميال فى عالم الليل القديم ، فقال :

— لعلك لو زرت شاربونيير تعرف جمـال ما يحيط بها من الحراج والغاب . وكانت لور عقيب مصالحتنا تحثنى على الخروج بقية اليوم ، فنراخى السـير ، ونسعى رويداً نلتمس فى أعماق الغاب مكاناً قفراً وبقعة خالية ، لا يبصر بها عاذل ، ولا يغشاها رقيب ؛ ثم نبتغى بين الأشجار اللّـفاء مجهلاً غامضاً خفياً ، نكون أول من أفضى إليه من بنى الإنسان ، فنأوى إليه ، ونطمئن فيـه ، آمنين ألا نصـاب بثالث يضايقنا بدخوله بيننا وبـين الطبيعة . وفى تلك البقعة كانت عروس الطبيعة تتجلى فى أجل منظر وأحسن زينة ، ويخيل إلينا ، أنها تجدد صورها وتبدل أشكالها وألوانها ، في كل آن ولحظة . وإنى لا أكتمك أننى فى أوقات تلك الخلوة كنت أتصور وجه معشوقتى كاحدى بدائع الطبيعة ، يزيدك حسناً كلما زدته نظراً ، وكأن جمالها من تجدده متنقل للعين فى صورشتى متعاقبة ، فلا تسأمه العين ولا يمله المتأمل مهما طال النظر إليه . وكان فى جلال الأشجار وفى أنواع الريحان والأزهار ما يملأ أعيننا جمالاً ، ولشدة ما ارتبطت روحانا كنا ننطق بعبارات متحدة فى اللفظ والمعنى . وهذا توارد الخواطر الذى يمثله امتزاج الروحين واندماج الذهنين كقولى لها : إذا ضرب الدهر يا لور بينى وبينك ، وكان الفراق على الرغم منى منك ثم افتقدتنى ، فالتمسينى يا نور عينى في هـذا المكان الذى نما فيه حبنا وترعرع ، وازدهى زهر غرامنا وأينع فصاحت فى نشوة الفرح وقالت :

— صدقنى يا كليمان ، إننى صغت هذه الجملة بألفاظها ومعانيها وهممت أن أقولها لك « فالتمسنى يا نور عينى ... » فسبقتنى إليها ...

* * *

مر الربيع وتلاه الصيف وأقبل الخريف وولى

وجاء بعده الشتاء ، وكنا قد هجرنا الغابة وموطننا الخفيّ ، وانقطعنا عن الذهاب إليه بضعة أسابيع . وعدت يوماً من جرينوبل إلى شابونيير قبيل الظهر وقصدت إلى عش غرامنا فى المثوى الذي نقطنه ، وكنت أحمل بين يدى هدايا وتحفاً وأزهاراً للورا كعادتى كلما وجدت رزقاً فى خزائن باعة الكتب الملاعين ، أو وصل إلى يدى نقود من دخل أمي التى تجد وتكد فى حرث مزرعتنا فى الهوت مارن ، أو فاضت بعض حقوق التأليف المسرحى من بين أنامل هرتز ذلك اليهودى الشحيح الذى كان يدير ملعب سلستان ، ويمثل بعض قطعى على خشبة مسرحه . وفى ذلك اليوم الذى لا أنساه تجمعت لدىّ أرزاق من مصادر ثلاثة ، ففرحت بها وحملت الهدايا إلى لور التى تخيلتها تنتظرنى كعادتها متكئة على إطار النافذة لتحيينى عن كثب ، إذا ما دنوت من سور الدار ، وكنت أشعر بالشباب والعافية ، وأحس دفء الحياة التى ينفخ الحب فى نارها . وأعتقد أننى لست وحيداً فى هذه الدنيا ولا شقيًّا ، وما أنا بحاجة إلى إيناس الأصدقاء والخلان ، ما دامت هذه المرأة تحبني . فلما دنوت من الباب رأيت مدام بوديه وزوجها يتهامسان على صورة لم أعهدها وكان الإشفاق والحنان بادين على وجه المرأة ، والسخف والخبث مرسومين على سحنة زوجها . كان ذا وجه مُذَكَّر قبيح ، ملتف اللحية ، كث المارضين ، ذا صوت غليظ أجش . وكان أهل الضاحية يسمونه الصنم ، والقطب المنجمد الشمالى ، وبرذون عازار [1] . فكان أول ما قاله لى على غير عادة سابقة : كم الساعة وهل تمطر السماء اليوم ؟ وهل تناولت غداءك ، وماذا أعددت للمفاجآت ؟ فابتسمت لزوجته التى كانت مثال الوقار والحسن الذابل ، فلم ترد على ابتسامي بمثله ، بل ألقت على زوجها نظرة كطعنة الخنجر بل أحد ، ثم قالت : ضع حملك الجميل ها هنا أيها الشاعر الظريف ، ولا تكبد نفسك مشقة الصعود به ، فهذه وظيفة تؤديها الوصيفة

فأطعتها وقلت وأنا على أحر من الجمر للقاء لور: حتى أجيب على أسئلة بعلك المحترم !

فقالت : لا عليك يا سيدى ! فإن للقردة والسنانير لغات كما لشعوب البشر ، وإن لضفادع هولاندا نقيقاً أشبه بأصوات بعض الرجال ، ولعلك لا تعلم أن الاسم الذى يحمله يدل على... [1]

(١) إشارة إلى اسم الجحش وفى أسماء الفرنجة كثير من هذه الغرائب

(١) كلمة Baudet وهى اسم الرجل معناها جحش وهو الحمار الصغير

المجموعة الاولى
للرواية
١٥٣٦ صفحة
فيها النص الكامل لكتاب اعترافات فتى العصر لموسيه ، والأوذيسة لهوميروس ، ومذكرات نائب فى الأرياف لتوفيق الحكيم ، وثلاث مسرحيات كبيرة و ١١٦ قصة من روائع القصص بين موضوعة ومنقولة .
الثمن ٣٤ قرشاً مجلدة في جزءين
و ٢٤ قرشاً بدون تجليد
خلاف أجرة البريد

فضحكتُ . ولكنها لم تضحك واستمرت فى تأنيب زوجها بالمجاز والتورية والكناية وأسلوب الحكيم « وعندى أن كل إنسان لا يضبط منطقه وليس له على لسانه سلطان يصرفه فى وجوه الصواب من القول ، ويجريه على أصول الحديث المشروعة وقواعده المألوفة فإنما هو مقلد لأحد أصناف تلك الأنعام ، يحكى عجمتها ، وعلى هذا القياس يكون الثرثار المهذار كالقرد والببغاء ... »

وقد شرب زوجها (بوديه) هذه الكأس حتى الثمالة ، ولم ينبس ببنت شفة !

فلم أفهم طبعاً سبب هذه الحملة من المرأة المؤدبة على زوجها الزنيم ، وإن كنت عهدتها لاتقيم له وزناً ، وتعاشره على حساب الماضى ، وقد ولى الشباب وذوى الجمال وهدأت ثائرة الهوى فى نفسها واقتنعت أنها لن تكون فتنة للعالمين ، فأخلق بها أن تخلد إلى الراحة بجوار مذود هذا الذى اسمه وصوته من أنكر الأسماء والأصوات

ثم دعتنى السيدة للجلوس وأمرت الخادم أن تخفف عنى عبء الهدايا التى أحملها . وكان المطر بدأ يهطل ثقيلاً ثم انهال البرد بسرعة فائقة ، فعجبت من تكهن « الجحش » بالمطر وهنأت نفسى ببلوغ الدار قبل تساقطه ، ومنيتها بالدفء فى الركن الركين حيث تنتظرنى لور بالطبقة العليا من الدار

ولكن مدام بوديه اكفهر وجهها وتجهم ، وكلما زاد انهمار البرد زاد وجهها تقطباً وعبوساً . أما زوجها فكان قد ولى الأدبار بعد أن عبث بلحيته الدكنة الكثة بأنامله الطويلة القذرة ، فدنت مدام بوديه فى رفق ونظرت إلىّ ، فقلت لها : لِمَ أراك مقطبة الجبين على غير عادتك وقد عهدتك أبداً هاشة باشة ؟ أيقبض نزول البرد نفسك حتى هذا الوجوم ؟

فقالت : إن الآنسة خرجت منذ الضحى ولم تعد ، فأخشى أن عنتاً يصيبها لدى عودتها ، لأنها لم تتخذ لهذا الهبوب المفاجئ عدته

فقلت : الآنسة ؟ ابنتك ؟

قالت : كلا : الآنسة لور صديقتك

فكدت أصعق ، لا من وقع الخبر ، ولكن من شماتة بهيمة الأنعام السيور[1] بوديه ، فقد أدركت الآن سر تهكمه وسؤاله عن الساعة والمطر والغداء

فقلت لمدام بوديه وقد لمحت فى عينيها دليل الشفقة علىّ : وبم تشيرين علىّ فى هذا الموقف الحرج ؟

فقالت : إما أن تنتظرها وإما أن تبحث عنها ، فقد رأتها جانيت تسلك السبيل المؤدى إلى خان « الجواد الأبيض »

فقلت : الجواد الأبيض ... آه ! إنها ذهبت إلى الغابة التى تخلو بها أحياناً ، ونهضت أقصد إلى الباب فاستمهلتنى مدام بوديه حتى أحضرت مظلة بالية أتقى بها البرد الذى ما زال مستمراً على شدته

ولما بلغت خان الجواد الأبيض واستدرت فى الطريق الواصلة إلى الغابة كان الثلج إذ ذاك يتساقط فى فضاء الجو ، والريح تصرخ وتعول ، ومصاريع النوافذ يشتد اهتزازها ويرتفع صريرها ، وكل شىء صادف عينى وصافح أذنى يسنح بالشؤم طائره ، ويجرى بالنحس فأله . وكنا نقطع الطريق فى أيام الصحو فى ساعة ، فما بالى اليوم والريح تضرب

(١) يقال سيور للرجل الذى لا يسوده المتكلم بلفظ موسيو

وجهى كأنما تريد صدى وردى ، وتملأ فراغ المظلة فتحطم أسلاكها الدقيقة وتمزق قماشتها البالية ، وتجذب بأطراف ردائي كأن لها عندى ثأراً ، فرأيت عجلة لبان يقصد إلى المزارع النائية ، وهو بلا ريب يمر بالغابة فاقترحت عليه أن يسمح لى بمصاحبته لقاء الأجر الذى يطلبه ، فتلطف وقبل ؛ وظننت أننا نبلغ الغابة في نصف الوقت الذى يقتضيه الراجل ، ولم يكن فى طاقتى أن أحادثه أو أسائله واكتفيت بأن تسلقت المركبة وتخلصت من المظلة مستهدفاً لأخطار الطريق ، فإنها لم تكن تغنى حيال هذه العاصفة الهوجاء . ولم نكد نخرج إلى العراء حتى ارتفعت الريح وهبت علينا زوبعة ثلجية أعشت أعين الجواد وقائده فلم يبصرا شيئاً ألبتة ، واختفى عليهما الطريق وسدت فى وجهيهما المذاهب ، وغابت الكائنات أجمع ، وكل شىء فى ضبابة كثيفة صفراء جملت شظايا الثلج خلالها تتساقط وتتهاوى ، واختلطت الأرض بالسماء ، وسار الجواد بالعربة على رِسله وكما شاء ، لا وجهة ولا قصد ، وفى كل لحظة يعثر فى كثيب من الجليد ، أو تنغرز حوافره فى جحر ، فكانت العربة لا تزال تقلب وتكب ، ووجدت أننى بالرغم من انقضاء نصف ساعة أو أكثر لم نصل إلى الغابة ؛ ومضى نصف آخر وما لاح لنا شبح الغابة فصممت على الانطلاق على أقدامى مستهدياً بالإلهام الربانى ، فإن الله أكرم من أن يتخلى عنى فى هذا الموقف الحرج . ونفحت اللبان بما أطلق لسانه بالشكر فنهاني عن مطاوعة الوهم وأنذرنى بالموت المؤكد . فلم أعبأ بإنذاره وترجلت أخوض غمار الثلج بإرادة قوية وعزيمة مدهشة . كل هذا والعاصفة في أشدها لم تفتر ولم تسترح والجو مربد الجوانب مكفهر النواحى لم يستمد أدنى شىء من صفائه ، وكان الكلال قد دب فىّ وسرى إلىّ الأين والإعياء وأقبل العرق ، نعم العرق يتحدر من جبينى قطرات كباراً بالرغم من أننى كنت لا أبرح مدفوناً إلى ساقى فى الجليد المتراكم . وأخيراً لاح على بعد شبح أسود ، فتوجهت نحوه حتى إذا دنوت منه ألفيته الغاية المنشودة والغابة المقصودة فتنفست وحمدت الله الذى قرب البعيد وهوّن العسير ، ثم سرت بمحاذاة صف من أشجار السرو راجياً أن أعثر بالمسلك المؤدى إلى المستقر الذى كنا نلجأ إليه . وما لبثت أن أصبته فأخذت فيه وأمعنت فى ظلمات الغابة ، وكان الشتاء قد جرد الشجر من ملاحفه ، ولكن جوف الغابة بقى من عبث الرياح مصوناً

فاستردت طرفاً من نشاطى وميعتى واستجم لى بعض جأشى وطمأنينتى

فقد كان أخوف ما أخافه أن تفاجئ العاصفة تلك الفتاة المسكينة فتزعجها وترهقها ، حتى إذا أيأسها الرعب سقطت مغشياً عليها ولا تزال كذلك حتى تدفن بالحياة تحت ركام الجليد . ولم يخطر ببالى أن طائفاً من الشرداء ، أو وحشاً فى صورة إنسان من الجانين أو طرداء الشرطة يفجأها فيفترسها

وما إن بلغت المكان المعهود حتى رأيت منظراً انخلع له قلبى ! فقد رأيت لور ... فى أحضان رجل بمأمن من الثلج والجليد ، لأن جوف الغابة كان مصوناً من عبث الرياح وحصيناً من عبث العاصفة . كانت التاعسة مجتمعة بين ذراعى الرجل وصدره كما كانت تطمئن إلى ذراعى وصدرى

وعند ما دنوت من مرقدهما نهض الرجل وقال بأعلى صوته : من أنت وماذا تريد ؟ فتنبهت المرأة ورأتنى فجزعت وارتاعت وزايلها الرجاء وامتلكها اليأس ، ثم استردت شجاعتها وعادت إليها نحنها

وخورها ووقفت كالبوءة التى تدفع الأذى عن أشيالها . وقالت للرجل :

اسكت أنت ولا تتكلم فهذا زوجى

فرفع الرجل قبعته ، فقلت له :

استبق غطاء رأسك يا سيدى فليس المقام مقام احترام .

فقالت : قبل كل شيء لا يحملك الغيظ على الشر قبل أن أشرح لك حقيقة الحال . ثم شرقت بدموعها وسالت عبراتها على خديها وأقبلت تسير نحوى وهى تقول : إنه رفيق صباى وأليف وحدتي قبل أن تمنحنى السماء نعمة التعرف إليك

وفى تلك اللحظة انقلبت الدنيا فى عيني بلون الدماء ، وهممت أن أتناول عنقها بيدي فأقضى على حياتها فى طرفة عين ثم أحطم رأسها بحجر . ولم أكن أبالى بالرجل الواقف أمامي ، ولكن الله أنزل السكينة على قلبي وقلت : إنك لست زوجتى كما زعمت لهذا الأحمق لتزيدينى حقارة فى نظره وتشهديه العبث بشرف القران فى سبيل حبه . لقد التقطتك من الطريق ، وقد انتهى ما كان بيننا . وإنى لا آبى أن أقتلك إلا لأنك أحط وأدنأ وأرخص من أن أدفع ثمن دمك بساعة في السجن أو بخبر فى جريدة ، فأسجل الغفلة على نفسى وأهبك منحة الاستشهاد والتضحية . لن أعود إلى البيت الذى عاشرتك فيه ولعلك تخلصين إلى هذا القديم بأكثر مما أخلصت لى . وعدت أدراجى لا ألوى على شيء

وفى هذه الأثناء كانت العاصفة قد سكنت والغيوم تقشعت ، وامتد أمامى على مدى البصر سهل مغشى بالجليد ، وقد صفا أديم السماء ولاحت الجوزاء لناظرى ، فأبصرت على كثب منى قرية صغيرة فيها أربعة منازل أو خمسة فأخذت سمتى إليها حتى إذا بلغت أول كوخ جريت إلى النافذة وطفقت أدق على بابها بيدى . فلم تكن إلا هنيهة حتى فتح مصراعها الخشبي وأخرج شيخ مسن لحيته البيضاء فسألته المأوى حتى أستريح من وعثاء التعب وشقة الخوض فى الجليد . فدعانى إلى كوخه وأكرم مثواى ، وكنت فى شغل شاغل فلا أشعر بالبرد ولا بالقرى ، ولكننى كنت متعباً فأعدت لى ربة الدار فراشاً فى إحدى الغرف فقضيت ليلة أرق وقلق . وفى الصباح سمعنا أجراس كنيسة القرية تدق دقات الفزع ، فلم تكن وفاة عادية ولا صلاة ولا زواجاً . فخرج الشيخ فيمن هلموا فهرعوا ليقفوا على الخبر ، ثم عاد يخبرنى بأن حرس الغابات عثر بقتيلين فى الغابة امرأة ورجل ، وأن أحدهما قتل صاحبه ثم انتحر ، والبحث جار عمن يرفع القناع عن سر هذه المأساة

* * *

وعند ما نطق ديربال بهذه الكلمة تذكرت الحقيبة الدبلوماسية ، تلك التى أنقلها معى فقد نسيتها فى مقصف ديجون عند ما كان الشاعر المغرم يتجرع عفريته الأخضر . إن أوامر كي دورسى [1] تحتم إن كنا على سفر ألا تفارق حقيبتنا التى تحتوى رسائلنا يدنا وعيننا لحظة واحدة ، فأنسانيها شيطان المرأة الخؤون . وقد كنت أفاخر بقوة ذاكرتى وقد صدق ديربال فى قالته « ليس من شر فى العالم أو أذى أو ظلامة إلا فى رقاب النساء أمها ووزرها ، وعلى رؤومهن تبعتها ومسؤوليتها » ففارقته وعدت إلى ديجون أبحث عن حقيبتى وقطعت حديثه ولم أعد أراه . ولكننى فطنت إلى أن المرأة التى أحبها وجن بها كانت أحد القتيلين اللذين دقت عليهما نواقيس القرية

محمد لطفى جمعه

(١) مقر وزارة الخارجية الفرنسية بباريس